UNITED ARAB EMIRATES
MINISTRY OF PRESIDENTIAL AFFAIRS
STUDIES AND RESEARCH DIVISION
STUDIES DEPARTMENT

الإمارات العربية المتحدة
وزارة شـــــؤون الـــرئـــاســـة
قطـاع الدراسـات والبحـوث
إدارة الـدراســات

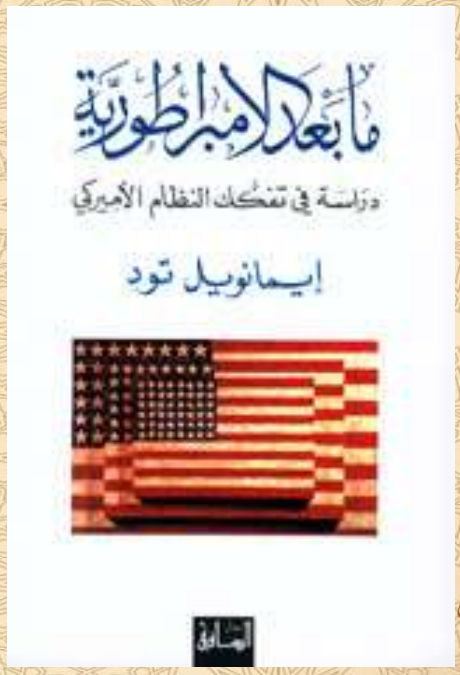

ملخّص كتاب:

ما بعد الإمبراطورية

دراسة في تفكّك النظام الأميركي

تأليف: إيمانويل تود

قسم الترجمة والدعم اللغوي
يونيو 2020

المحتويات

تمهيـــد 0
الفصل الأول: أسطورة الإرهاب العالمي..... 1
الفصل الثاني: التهديد الديمقراطي الكبير 5
الفصل الثالث: البعد الإمبريالي 6
الفصل الرابع: هشاشة الجزية..... 8
الفصل الخامس: تراجع العمومية..... 11
الفصل السادس: مواجهة القوي أم مهاجمة الضعيف؟ 14
الفصل السابع: عودة روسيا 17
الفصل الثامن: تحرر أوروبا 20
الخاتمة: نهاية اللعبة 23

تمهيـــد

أصدرت "دار الساقي" في لبنان كتابًا بعنوان "**ما بعد الإمبراطورية.. دراسة في تفكّك النظام الأميركي**" للكاتب الفرنسي إيمانويل تود، وذلك في طبعته الثانية 2004، ويقع الكتاب في 223 صفحة من القطع المتوسط، ويشتمل على مقدمتيْن، وثمانية فصول، وخاتمة.

وقد تناول الكتاب في **الفصل الأول** أسطورة الإرهاب العالمي، وازدياد العنف في العالم، وأثر العولمة، والثورة الديمغرافية السياسية، ونظرة الغرب السلبية نحو الإسلام، وبخاصة المملكة العربية السعودية وباكستان، وتطرّق في **الفصل الثاني** إلى التهديد الديمقراطي الكبير، وأثر الديمقراطية في

العالم الإسلامي، وبروزها في بعض الأنظمة السياسية الإسلامية، واستحالة قيام حروب بين الأنظمة الديمقراطية، وفي **الفصل الثالث** يعقد موازنة بين إمبراطوريتيْ اليونان والرومان القديمتيْن، والإمبراطورية الأمريكية الحديثة، وكيفية تحوّل أمريكا إلى مجتمع استهلاكي، وتراجع قدراتها العسكرية، وازدياد عجزها التجاري، وتفوّق أوروبا واليابان على أمريكا اقتصاديًا.

أمّا **الفصل الرابع** فيتناول الهشاشة العسكرية الأساسية لأمريكا في كوريا وفيتنام، والحرب في العراق، وفرضها على الآخرين، ودفع تكاليف هذه الحروب التي تُغطّي من خلالها عجزها التجاري، وفي **الفصل الخامس** يتحدّث عن التمييز العنصري في مجتمع يدّعي العمومية، ونفي مبدأ المساواة المُعلن، يُقابله تحيّز صارخ ومساند لإسرائيل، وحقد ضدّ الإسلام والعالم العربي، ويتحدّث في **الفصل السادس** عن كون الخيار الأمريكي ليس نتاجًا لإرادة قوة، بل هو نتاج لانهيار الاتحاد السوفييتي، ولّد لحظة وهمًا بالقوة الأمريكية العظمى، التي لا تقوى إلاّ على مواجهة خصوم ضعفاء وأخطار موهومة مُفترضة في حالة من فقدان الوعي والهستيريا، واعتبار العالم الإسلامي خصمًا لها، والتركيز على النفط العربي.

ويختصّ **الفصل السابع** بالحديث عن سعي الولايات المتحدة إلى عزل روسيا وإضعافها، ومنع تقاربها مع أوروبا، وعودة روسيا وبقوة لاعبًا ثابتًا موثوقًا في توازن الدول، ويصف المؤلف في **الفصل الثامن** تغيّر صورة الولايات المتحدة لدى الأوروبيين، ونشوء وعي أوروبي بمخاطر السلوك الأمريكي المحفوف بالخطر؛ ممّا يُعجّل بقرب الطلاق بين أوروبا وأمريكا.

ويوضّح في الخاتمة أن أمريكا تحوّلت من "حامية" إلى "نهّابة"، ولم تعُد ذات نفع عسكري أو سياسي، وأنها لكي تُهيمن على العالم لابدّ من توفّر شرطيْن، هما: السيطرة على أوروبا واليابان، والقضاء على القوة الإستراتيجية الروسية، ولم يتحقّق أيّ من الشرطيْن، فهي في الواقع ليست قوة عظمى، ولا يمكنها أن تُرهب سوى الدول الضعيفة.

الفصل الأول: أسطورة الإرهاب العالمي

إن العالم يمرّ بحالة من الهذيان والجنون، بما يُمارس من أعمال العنف؛ إذ تتوالى بوتيرة متسارعة مذابح الأفراد والشعوب في إفريقيا (الصومال، رواندا، نيجيريا، سيراليون، زيمبابوي، الجزائر)، وفي آسيا (إيران، الشيشان، جورجيا، أرمينيا، طاجيكستان، الهند، سريلانكا، الفلبين، إندونيسيا، أفغانستان، العراق)، وأوروبا (تفكّك يوغسلافيا، مذابح ضدّ المسلمين في البوسنة، وكوسوفو)، ولا ننسى المواجهة الإسرائيلية الفلسطينية، وانهيار برجيْ التجارة، أحد رموز الهيمنة الاقتصادية الأمريكية.

ويمكن تعداد عناصـــر التراجع في الحالة الراهنة إلى تزايد اللامســـاواة في المجتمعات الفقيرة كظواهر تُعزّزها العولمة الاقتصادية والمالية؛ ممّا أدّى إلى سحق الأجور، وتقلّص فرص العمل، وارتفاع دخل الأغنياء مقابل انخفاض هائل في دخل الفقراء، وإن التقدّم الثقافي الهائل الذي حقّقه العالم يتمثّل في مؤشّـريْن أسـاسـييْن، هما: انتشـار التعليم الجماهيري، وانتشـار تنظيم الإنجاب ومراقبته.

العولمة وتعليم الأميين

كانت النهضة الاقتصادية التي شهدتها آسيا وأمريكا اللاتينية في القرن العشرين – كما في أوروبا في القرن السابع عشر وبداية القرن العشرين – نتيجة فورية لنمو التعليم، وما كان نقل مصانع الأوروبيين واليابانيين إلى الدول ذات الأجور المنخفضـــة ليتمّ وينجح، لولا التقدّم التعليمي في البرازيل، والمكسيك وتايلاند، وإندونيسيا، ونلمس بوضوح دور التعليم كعامل أساسي وراء دوافع الهجرة الحالية إلى أوروبا والولايات المتحدة؛ وذلك للتخلّص من الفقر الذي وصـــلت إليه الدول التي ينحدر منها المهاجرون، وحيثما تكون الثورة التعليمية غير مكتملة – كما هو الحال في إفريقيا – لا يتمّ نقل المصـــانع إليها، وإن العولمة الاقتصـــادية كظاهرة، لم تحدث خارج إطار الزمن، بل هي تقنية ترمي إلى تعظيم الربح في بيئة عالمية خاصـــة جدًا في التاريخ، تتمثّل في وجود فيض نسبي من الأيدي العاملة المتعلّمة خارج حدود الدول الصناعية الكبرى.

الثورة الديمغرافية

بلغ المؤشّر العالمي للخصوبة سنة 1981 (3,7) طفل لكلّ امرأة، وهبط سنة 2001 إلى (2,8) طفل لكلّ امرأة، وقد أصبح معدّل الخصوبة في بعض الدول النامية مساويًا لمعدّل دول الغرب، ويُلاحظ هبوط مُضطرد في معدّلات الخصوبة لدى أكثر الدول الإسلامية، وهناك عدد من الدول الإسلامية، التي لم تشهد بعد حركة الانتقال الديمغرافي، يزيد فيها معدّل الخصوبة على 6 أطفال لكلّ امرأة، وعلى الرغم من هذه النســب المرتفعة، يمكن أن يُشــكّل ارتفاع معدّل القضـــاء على الأمية في هذه الدول ضمانة لخضوعها للمصير المشترك الذي تنشده البشرية، وهو السيطرة على الخصوبة والحدّ منها.

أزمة الانتقال

تترافق النهضة الثقافية والفكرية مع أزمة انتقال، ويكون للمجتمعات التي تُعاني من عدم استقرار سلوكيات اجتماعية وسياسية عنيفة، فالارتقاء إلى الحداثة الفكرية يترافق في معظم الأحيان مع تفجّر العنف الأيديولوجي، فقد برزت في الثورة الفرنسية قيم الحرية والمساواة، وظهرت صرامة السلطة مع الثورة الروسية، ومثيلها مع عدم المساواة في فترة النازية الألمانية، وترافقت النهضة الإنجليزية مع أزمة سياسية ودينية أدّت إلى حرب أهلية.

ففي 1979، طردت الثورة الدينية الشاه، وتبع ذلك عقدان من الإفراط الأيديولوجي، والصراع الدامي، ولكنه يُعبّر عن فترة انتقال، وحدث أن معدّلاً تعليميًا عاليًا حوّل الجماهير الإيرانية في مرحلة أولى، ثمّ دفع الدولة في مرحلة ثانية نحو حداثة فكرية شاملة، وتستمرّ الثورة الإيرانية في المضي رغم رفض الحكومة الأمريكية الاعتراف بالديمقراطية للنظام الإيراني، كما تقود إلى انتخابات عامة، وإن لم تكن حرة، إلاّ أنها تجري على أساس التعدّدية بإصلاحيين، ومحافظين، ويسار، ويمين، وينتشر محو الأمية لدى الرجال بمعدّل أسرع ممّا هو لدى النساء في كلّ مكان، ويسبق عدم الاستقرار السياسي بصورة عامة انتشار الرقابة على الإنجاب، وقد انتشرت في فرنسا الرقابة على الإنجاب بعد ثورة 1789، وفي روسيا إثر استلام السلطة من قبل البلاشفة.

الديمغرافيا والسياسة

يُساعد محو الأمية وانخفاض معدّل الخصوبة في انتشار الديمقراطية على مستوى العالم، وقد كانت مرحلة الانتقال في الحالة الروسية مضطربة جدًا، كما في الحالتيْن الفرنسية والألمانية؛ إذ شهد عهد ستالين تغيرًا في السلوك الجنسي أدّى إلى مضاعفة البلبلة الناجمة عن محو الأمية، وكان يعتقد أن وجود "إنسان سوفييتي"، مخلوق من نموذج كوّنته ستون سنة من الديكتاتورية والرّعب؛ سيضمن أن يعيش النظام الشمولي بصورة أبدية، ولكن تبيّن فيما بعد عكس ذلك؛ إذ إن انخفاض معدّل الخصوبة في الاتحاد السوفييتي كان عاملاً في إسقاط الشيوعية.

الانتقال الإسلامي

صُوّر الإسلام في السنوات الأخيرة على أنه "شرير"، ومؤذٍ، ومُثير للاضطرابات والمشكلات، ومترافق مع العنف، وصراعه مع الغرب المسيحي هو المقصود في كتاب صموئيل هنتنغتون "صراع الحضارات"، على أنه ليس من الضروري أن نُندّد بالإسلام، ونُشهّر بتفضيله الحرب اعتمادًا على الدّور الحربي للنبي محمد، وإن العالم الإسلامي كثير التنوّع، وهو في حالة تأخّر قياسًا بأوروبا والصين وروسيا واليابان، ومن أجل ذلك؛ تجتاز كثير من الدول الإسلامية نقطة العبور في المرحلة التاريخية الراهنة، وبين هذيْن العالميْن لابدّ من تحمّل معاناة واضطراب الانسلاخ الذهني.

لقد هدأت الثورة الدينية في إيران، وأخفقت في الجزائر، ولم تنجح الأحزاب الدينية في تركيا في تهديد العلمانية، ويوضّح جيل كيبل في كتابه "جهاد" (JIHAD)، أن ماليزيا – حيث يُحقّق معدّل التعليم فيها رقمًا عالميًا – تُعدّ نموذجًا لبداية انحسار الأزمة السياسة الدينية، ولا يؤدّي العامل الديني إلاّ دورًا ثانويًا في الجمهوريات السوفييتية السابقة، ولقد توقّع كثير من المُحلّلين أن يؤدّي سقوط الشيوعية إلى تفجّر مشاعر دينية إسلامية، واتضح أن الأنظمة في تلك الدول لا تُعاني من مشكلات دينية.

الأزمة المُقبلة: باكستان والسعودية

أدّت السعودية وباكستان دورًا رئيسًا في الهجوم على مركز التجارة العالمي ووزارة الدفاع الأمريكية في 9/11؛ إذ أسهمت باكستان في إنشاء نظام "طالبان" كقاعدة خلفية لمنظمة "القاعدة"، في حين كان معظم مُنفّذي العمليات الانتحارية ضدّ الولايات المتحدة سعوديين، وستبقى السعودية وباكستان – مدّة عقديْن على الأقل – منطقتيْ خطر على الولايات المتحدة، ونستخلص من الإحصاءات أن الإسلام سيئ وشيطاني، فهو يجتاز أزمة التحديث، ولذلك لن يكون واحة سلام، مع أن قسمًا من العالم الإسلامي قد سلك سبيل التهدئة.

يوغسلافيا: أزمات منفصلة ومتداخلة

ينطبق على انهيار كلّ من الشيوعية ويوغسلافيا القانون العام الذي يربط بين التقدّم والارتباك الذهني، ويجب ملاحظة تأخّر السكان المسلمين الملحوظ في السير نحو الحداثة بالمقارنة مع السكان المسيحيين، ونجد أن الثورة الذهنية لدى السكان المسلمين قد تداخلت مع انهيار الشيوعية، ويمكن القول: إن التحوّل عن الشيوعية – الذي لم يمكن أمرًا سهلاً – قد تحوّل بتأثير أزمة الانتقال لدى السكان المسلمين إلى كابوس قاتل، وبما أن معدّل زيادة السكان الصرب والكروات المسيطرين آخذ بالهبوط، ورأوا أنفسهم في مواجهة سكان مسلمين يتزايد عددهم بسرعة، بدا كأنه نوع من الغزو الديمغرافي، ونظرة سريعة إلى خريطة العالم تكشف وجود تفاعل متبادل ليس بين الإسلام والمسيحية كما يزعم هنتنغتون، بل بين الشيوعية والإسلام.

صبر ووقت طويلان

إن النموذج الذي يربط فيما بين التحديث الفكري بعنصريْه الأساسييْن، وهما: "نشر التعليم، وانخفاض الخصوبة"، والاضطرابات الأيديولوجية والسياسية التي تُفضي إلى مواجهات بين الأديان كما بين الشعوب، هو نموذج يتّصف بالعمومية الشديدة، ولقد أدّت أحداث 11 سبتمبر للأسف إلى تعميم مفهوم "صراع الحضارات" في عالمنا المتسامح جدًا، علمًا أن عددًا كبيرًا من المفكرين والسياسيين أكّدوا بعد الاعتداء مباشرة أنه لا يمكن أن يكون هناك "صراع حضارات" بين الإسلام والمسيحية، وإن مشاعرنا الطيّبة رفضت توجيه الاتهام بصورة مباشرة إلى الإسلام، غير أن الإسلام ارتبط بمفهوم "الإرهاب".

إن مفهوم الإرهاب العالمي غير معقول، وضرب من العبث، من وجهة نظر العالم الإسلامي، الذي سوف يخرج من أزمة انتقاله دون أيّ تدخّل خارجي، وذلك عن طريق عملية تهدئة تلقائية، وفي الواقع، لا يُفيد هذا المفهوم سوى أمريكا؛ إذ كانت بحاجة إلى عالم يشتعل في حالة من الحرب الدائمة.

الفصل الثاني: التهديد الديمقراطي الكبير

إن أحد التعريفات الأولى للديمقراطية، والذي يعود لأرسطو، لا يزال معاصرًا لنا، وهو يربط بين الحرية والمساواة لتمكين الفرد من "أن يعيش حياته كما يريد"، ويبدو منطقيًا أن نرى ازدياد الأنظمة السياسية التي تميل نحو الديمقراطية الليبرالية (إيران، إندونيسيا، تايوان، كوريا، جمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقًا)، ويمكن القول: إن الأفراد الذين اكتسبوا الوعي وأصبحوا متساوين بفضل التعليم لا يمكن خضوعهم لنظام حكم سلطوي إلى أجل غير محدود، والمعهود هو عدم إمكانية الحرب بين الأنظمة الديمقراطية.

التباين الأنثروبولوجي الأصلي

تبيّن لنا في الفصل السابق العنصر المشترك لجميع حالات النهضة الثقافية (انتشار التعليم، انخفاض معدّل الخصوبة، التنشيط السياسي للجماهير)، دون أن ننسى العنف والبلبلة الناتجين عن عملية الاقتلاع الذهني، وهناك تفسير غير مقنع للتباين الأيديولوجي الخطير للمجتمعات في مرحلة التحديث؛ فالشمولية الشيوعية المُتمسّكة بمبدأ المساواة بين الناس تختلف عن النازية المُتمسّكة بمبدأ عدم المساواة بين الشعوب، وفي حين جعلت الثورة الفرنسية الحرية والمساواة مذهبًا عالميًا، أبقى الفلاحون الروس أولادهم تحت سلطتهم، كما تنتشر في ألمانيا قيم السلطوية واللامساواة في نظام الأسرة، وقد كانت تُعيّن لكلّ جيل وريثًا وحيدًا.

مخطط ممكن: هستيريا انتقالية ثمّ توافق ديمقراطي

إن جميع المجتمعات التقليدية تسير منقادة بحركة التاريخ نفسها، ولكن أزمة الانتقال تُحوّل التعارض بين الشعوب إلى مآسي، وفي الوقت الآني، يجعل العالم العربي الإسلامي من خلافه مع الغرب مأساة، لاسيّما فيما يتعلّق بوضع المرأة، ويصعب تقبّل الفكرة القائلة: إن جميع الديمقراطيات بعد فترة الانتقال ستكون مستقرّة من حيث الجوهر، أو حتى يتشابه أسلوب عملها مع أسلوب الديمقراطيات الليبرالية الغربية، ويمكن القول: إن فشل العملية الديمقراطية ما بعد الشيوعية التي أدّت إلى قيام نظام مختلط يمزج الإمبريالية الاقتصادية بالسلطوية السياسية، لا يُشكّل عائقًا أمام النظرية الديمقراطية، ومن المفارقة أن نجد صعوبة أكبر في تصوّر استقرار ديمقراطي ليبرالي على المدى البعيد في أمريكا اللاتينية؛ إذ تشهد تناوبًا على السلطة بين أنظمة ديمقراطية وانقلابات عسكرية منذ القرن التاسع عشر، ولقد أدهش ثبات الديمقراطية الفنزويلية الولايات المتحدة، التي تعجّلت في الاعتراف بالانقلاب، مع شعور كثير من المفكّرين بالقلق أمام عدم اهتمام الولايات المتحدة بمبادئ المساواة والحرية، ويكفي أن نقبل صيغة في الحدّ الأدنى لـ"أطروحة فوكوياما" حول تعميم الديمقراطية الليبرالية على مستوى العالم، ويمكن أن نعتمد صيغة بالحدّ الأدنى لـ"قانون دويل" حول استحالة قيام حرب بين الديمقراطيات.

الأمم المتحدة الأوروبية

يُعدّ انتقال أوروبا إلى حالة سلام وتعاون مع جميع الأمم برهانًا على إمكانية انتقال العالم بأكمله إلى حالة هدوء، وفي قلب أوروبا، نجد أن العلاقات الفرنسية–الألمانية التي كانت تُعبّر بقوة عن حالة حرب، قد تحوّلت إلى ما يُشبه حالة سلام دائم، علمًا أن هناك اختلافات ذهنية عميقة في أوروبا ما زالت سائدة بين السكان، وخاصة بين الفرنسيين والألمان، ولا يمنع هذا التباين في الأمزجة نجاح نظاميْن يحترمان قواعد العمل الديمقراطي، وإن الأمم الأوروبية مستمرّة الوجود رغم مؤسّساتها المشتركة، وعملتها الموحّدة، وتعاونها التكنولوجي، بحيث يصحّ إطلاق تسمية الأمم المتحدة الأوروبية، وسوف يكون مطلوبًا من الولايات المتحدة أن تعود ثانية أمة ليبرالية ديمقراطية كالديمقراطيات الأخرى، وأن تُسرّح آلتها العسكرية، وتأخذ وضع المتقاعد الإستراتيجي الذي تستحقّه، مُحاطة بمحبّة العالم.

عودة إلى الواقعية الإستراتيجية: روسيا والسلام

كانت روسيا، عشيّة تفجيرها الأيديولوجي، تُهدّد بثقلها الجغرافي والديمغرافي والعسكري أيّ بلد على وجه الأرض، فقد شكّل التوسّع العسكري السوفييتي المعضلة الأساسية للديمقراطيات، وبعد أن تُصبح روسيا عملاقًا "سمحًا وطيب القلب" وتتحوّل إلى الديمقراطية؛ سيكون بإمكان الأوروبيين واليابانيين الاستغناء عن الولايات المتحدة، وإذا ما توجّه العالم نحو السلام، ولم يعُد في حاجة إلى الولايات المتحدة؛ فسوف يتحوّل دور روسيا كذلك؛ إذ ليس ثمة ما يمنع من تصوّر روسيا ليبرالية وديمقراطية، تحمي بدورها العالم من سطوة أمريكا، التي تُحاول أن تُثبت لنفسها وضعًا إمبرياليًا عالميًا.

الفصل الثالث: البعد الإمبريالي

تفرض المقارنة بين إمبراطوريتيْن قديمتيْن – أثينا وروما – نفسها على كلّ من يُريد أن يدعم بالتاريخ دراسة حول النظام الأمريكي؛ إذ تُرضي أثينا المعجبين بالولايات المتحدة، وتُرضي روما المُعارضين لها، ولا يمكن اتّهام الولايات المتحدة بالعسكرية الفطرية، أو بالإمبريالية الإقليمية، وذلك على غرار روما؛ لأنها دولة بحرية أساسًا على نمط أثينا، وانعزالية حتى هجوم "بيرل هاربر".

منشأ العولمة الاقتصادية: العاملان السياسي والعسكري

نشأ النظام الأمريكي سنة 1945 مع نهاية الحرب العالمية الثانية، التي برهنت خلالها الولايات المتحدة على تفوّقها صناعيًا وعسكريًا، وكانت ألمانيا واليابان الغنيمتيْن الأساسيتيْن، وقد بسطت الولايات المتحدة سلطتها على كلا البلديْن بالقوة العسكرية، وصولاً إلى السيطرة على النظام الاقتصادي العالمي، ويُمثّل هذا كله نموذجًا اتّبعته الإمبراطورية الرومانية، وتبدو هذه المقارنة مع

الأنظمة القديمة غنية بالدلالات، أبرزها أن إنشـــاء اقتصـــاد عالمي (معولم) هو نتيجة العملية السياسية–العسكرية.

من الإنتاج إلى الاستهلاك

يمتدح دعاة نظرية الاقتصاد الحرّ حسنات التبادل الحرّ، القادر وحده – حسب ادّعاءاتهم – على أن يزيد الإنتاج والاســـتهلاك لدى جميع ســـكان الأرض، ثمّ يراهنون إلى ما لا نهاية على قوى السوق، وأن العالم لم يُنتج بصورة متزايدة من أجل أن تستهلك أمريكا، وأن أمريكا التي كانت تُنتج أكثر من حاجتها بكثير في أعقاب الحرب، أصبحت تستهلك أكثر ممّا تُنتج، ولقد أصبح العجز التجاري الأمريكي مُفزعًا؛ إذ بلغ مليارات الدولارات، ونلاحظ أن النفط، الذي يُشكّل الشغل الشاغل للإستراتيجية الأمريكية، لا تتجاوز حصّته في العجز التجاري لسنة 2001، 80 مليار دولار، في حين تبلغ حصّة بقية السلع الأخرى التي معظمها مُصّنعة 366 مليارًا.

ونلحظ أنه سـنة بعد سـنة، يتراجع تقدّم أمريكا في جميع المجالات، بما في ذلك الصـناعة التي تحتّل فيها مركز الزّعامة في العالم، وقد أصبح الإنتاج الأمريكي أقلّ من إنتاج الاتحاد الأوروبي، وأعلى قليلاً من إنتاج اليابان.

إن تفســيرًا إمبرياليًا من الطراز الروماني يُمكّننا من إدراك هذه العملية كنتيجة اقتصـــادية لتنظيم سياسي وعسكري؛ إذ بسبب ثقة الولايات المتحدة الزائدة باستمرار تفوّقها الاقتصادي، إلى جانب وضـع تحقيق الاندماج السياسي في منطقة سيطرتها العسكرية ضمن أولى أولوياتها؛ فقد فتحت أسواقها أمام المنتجات الأوروبية واليابانية؛ ثمّ ظهر العجز التجاري في بداية السبعينيات، وانتشر بما يتجاوز منطقة سـيطرة الولايات المتحدة الأسـاسـية الأصـلية، ولم تعُد أمريكا ضـرورية للعالم بسبب إنتاجها، وإنما صـارت ضـرورية للعالم بسبب استهلاكها، وهذه ظاهرة بنوية أفرزها التبادل الحر.

وينظر العالم إلى ميل أمريكا نحو الاستهلاك أكثر من الإنتاج كما لو كان حسنة لها تُذكر، وإن معدّل توفير الأسـرة الأمريكية قريب من الصـفر، ويزداد العجز تباعًا، ويمكن تشـبيه ذلك بعالم معكوس تتوسّـــل فيه النملة الخنفســـاء لتتقبّل منها الطعام؛ فقد أصـــبح الأمريكيون بمجموعهم موظفين غير منتجين بل مسـتهلكين، وإن الإفراط في المسـؤولية الفردية لم يؤدِّ إلاّ إلى حالة من اللامسؤولية الجماعية.

تشوّه إمبريالي للمجتمع الأمريكي

عانى العمّال الأمريكيون في 1970 حتى 1990 موجة من فقر جزئي، وأحيانًا كلي، ففي الوقت الذي ازدادت فيه ثروة أغنى 400 أمريكي عشـرة أضـعاف بين سـنة 1990 و2000؛ لم يرتفع

الدخل القومي إلاّ بنسبة الضعف؛ إذ إن التحوّل الإمبريالي للاقتصاد دفع باتجاه تحويل الطبقات العليا في المجتمع الأمريكي إلى طبقات عليا في مجتمع إمبريالي.

ولا يمكن إلاّ أن نذهل من حقيقة التضخّم الهائل في عجز الميزان التجاري للولايات المتحدة الذي ازداد من 100 مليار دولار سنة 1993 إلى 450 مليارًا سنة 2000، ونلمس خطّ التوازي مع تاريخ الإمبراطورية الرومانية.

حوار السنوات 1990-1995: الأمة ضدّ الإمبراطورية

شجّب كثير من الباحثين الأمريكيين التبادل الحرّ ونتائجه على طبقة العمّال الأمريكيين، ولقد وضع ميكائيل ليند سنة 1995، أول دراسة حول تطوّر المجتمع الأمريكي تتلاءم مع تأكيد التبادل الحر، وعارض سحق الأوساط العمّالية والشعبية، ووصف الطبقة الجديدة الحاكمة في أمريكا التي لا تُعرف فقط بثرواتها، ولكن بعاداتها الثقافية والذهنية أيضًا، ورسم ليند صورة لأمريكا الطبقية التي تميل إلى البعد عن الديمقراطية، والإمبراطورية الأمريكية التي تنطلق من مبدأ أن العلاقة مع العالم يجب أن تقوم على السيطرة، وهذه سمات الإمبراطورية التي تولد تحت ضغط عسكري، وإن دينامية السلطة تقود إلى ظهور سياسة مساواة للجميع يكون مبعثها ليس الحرية للجميع، بل الاضطهاد للجميع.

وبقياس المعايير السابقة، لا تتوفّر لدى الولايات المتحدة المتطلّبات الأساسية للإمبراطورية؛ وذلك بسبب ثغرات مهمّة يمكن التنبؤ من خلالها بأنه لن تكون هنالك إمبراطورية أمريكية في 2050، وثمة نوعيْن من الشروط الرئيسة للإمبريالية لا يتوفّران لدى أمريكا، أولاً: قيمتها العسكرية والاقتصادية غير كافية للاحتفاظ بالمستوى الحالي لاستقلال العالم، ثانيًا: عموميتها الأيديولوجية في حالة تراجع، ولا تسمح لها بعد الآن بأن تُعامل الأفراد والشعوب بالمساواة من أجل أن تؤمّن لهم الرّخاء ومن أجل استغلالهم.

الفصل الرابع: هشاشة الجزية

يمتاز الجيش الأمريكي بوفرة عدد أفراده وتسليحه؛ الأمر الذي يدلّ على طموح إمبريالي، كما تُساوي النفقات العسكرية للدولة العظمى الوحيدة النفقات العسكرية في العالم، ويزيد حجم آلتها العسكرية عن حاجة الأمن القومي، ولكنها أقلّ ممّا يجب من أجل سيطرتها على إمبراطورية، ولم يحصل أن واجهت أمريكا خصمًا بحجمها.

قلّة الكفاءة العسكرية التقليدية

ثبت أن الشيوعية الروسية هي التي هزمت النازية الألمانية، وكان لها النصيب الأكبر في تحرير أوروبا، ولقد مكّنتها خسائرها البشرية من كسر الآلة العسكرية النازية، بينما كان الجيش الأمريكي بطيئًا وغير فاعل، وفي كلّ مرة، كانت تُسند العمليات العسكرية التي تحتاج إلى روح التضحية

إلى القوات الخلفية، أمّا السـيطرة الجوية والبحرية الأمريكية فليسـت قابلة للنقاش، وبعد الحرب العالمية الثانية كانت كلّ خطوة تُقرّب الولايات المتحدة من المواجهة مع المنتصـر الحقيقي (روسيا) تكشف الهشاشة العسكرية الأساسية لأمريكا؛ فلم يكن أداؤها مرضيًا في كوريا وفيتنام، ولم تحصـل مواجهة حقيقية مع الجيش الأحمر، أمّا في حرب الخليج، فقد تمّ الانتصـار على الجيش العراقي الذي لم يكن سوى خرافة عسكرية.

جغرافيا الإمبراطورية

في 1998، كان 259871 جنديًا أمريكيًا موزّعًا خارج الولايات المتحدة، وذلك على 26 دولة عشية إطلاق الحرب على الإرهاب، ويرى بريجنسكي أن المحميتان في أوروبا والشرق الأقصى هما اللتان لا يمكن أن توجد من دونهما قوة أمريكية عالمية، معظمهم في ألمانيا واليابان، وقد بلغ عددهم 100,000 جندي، و13774 جنديًا في هنغاريا وكرواتيا والبوسنة، وفي الشرق الأوسط بمصر والسعودية والكويت والبحرين، وغيرهم في أوزبكستان، وأفغانستان، يُحاصرون روسيا والصين، ولا يمكن أن نستنتج من هذه الأرقام أنه توجد لدى الولايات المتحدة إرادة إمبريالية، أو نيّة أمريكية عدوانية ثابتة ودائمة، وينبع نمو القوات المسلّحة من الوعي بالهشاشة الاقتصادية المتزايدة للولايات المتحدة، ويمكن أن تُعَدّ الجزية هي تكاليف الإقامة والغذاء المقدّمة إلى الجيوش الأمريكية من قبل ألمانيا واليابان، فهذه الطريقة التي تُسـتهلك فيها أمريكا دون أيّ مقابل تُعدّ غريبة وخفية وخطيرة.

طريقة الجزية وتلقائيتها

تستقطع الولايات المتحدة أموالاً من كلّ دول العالم نقدًا؛ وذلك من أجل تسديد ثمن مستورداتها، كما فعلت من قبل الإمبراطورية الرومانية، ففي حرب الخليج الثانية، تمّ دفع تكاليف الحرب المباشرة من قبل الدول الحليفة، وهناك مبيعات الأسلحة وعملية تصديرها التي تدُرّ الأموال، ولا تُحدّد أسعارها وفقًا لرغبات المشترين، وبالتالي، تُشكّل قوة ضغط حقيقي أمريكي، كما تُعدّ السيطرة على بعض مناطق إنتاج النفط عنصرًا مهمًا في الجزية التقليدية، وإن مجال النفط يسمح بابتزاز على مستوى عالمي، ويتمّ الحصول على القسم الأكبر من الجزية المستقطعة دون ضغط سياسي أو عسكري، وبطرق ليبرالية وتلقائية، وذلك من خلال الحصول على القطع الأجنبي مقابل الدولار الأمريكي الذي لم تهبط قيمته تحت ضغط تعاظم العجز التجاري.

مذهب "أونيل"

مع بداية الألفية الثالثة، ورغم العجز الأمريكي التجاري، وغياب معدّل فائدة مرتفع، إلى جانب التضخّم المرتفع، بقي الدولار قويًا مدّة طويلة؛ إذ كانت أموال العالم كلها تتجه نحو الولايات المتحدة، وقد صرّح وزير المالية، والأمريكي شاكيل أونيل، وكذلك المسؤولون الأمريكيون، بأن أمريكا بحاجة إلى مليار دولار يوميًا كي تُغطّي عجزها التجاري، وهذا لا يتحقّق إلاّ باحتكار العنف الذي تُمارسه الولايات المتحدة على مستوى العالم، وإذا ازداد استهلاك الأمريكيين وتوقّف التدفّق المالي؛ فإن ذلك سيؤدّي إلى انهيار الدولار.

قوة عظمى تعيش يومًا بيوم

يؤكّد رجال الاقتصاد الأمريكيون أن الأموال سوف تستمرّ بالتدفّق في استثمارات أمريكا؛ لأن الاقتصاد الأمريكي أكثر دينامية؛ ولأنه لا يقبل تحمّل المخاطر، وهو أكثر تحقيقًا للربح بالمعنى الدّقيق للكلمة، ولقد تعاظم تدفّق الرساميل نحو الولايات المتحدة من 88 مليار دولار سنة 1990 إلى 865 مليارًا سنة 2001.

ويقول كينز: إن الرجل الذي يُريد استثمار أمواله يُعاني من خوفيْن: الخوف من فقدان المال، والخوف من ألا يدُرّ ماله أعلى فائدة ممكنة؛ لذا فهو يسعى إلى تحقيق الأمريْن: الأمان والربح، ويدلّ الواقع على تفوّق عامل الأمان في اختيار الولايات المتحدة كمركز لاستثمار الأموال؛ إذ تُعدّ الولايات المتحدة القلب السياسي للنظام الاقتصادي.

دولة الأغنياء

حتى لو قبلنا بأن الرأسمالية هي التنظيم الاقتصادي العقلاني الوحيد، فلابدّ من الاعتراف بأن هذا النظام لو تُرك وحده لجرّ الخراب على الجميع، بمن فيهم الأغنياء، وذلك بفعل أدائه السيئ، وإذا علمنا أن الانتفاخ الهائل لذلك الجزء من الدخل القومي الذي يستأثر بنسبة 20% من أكثر

الأشخاص غنى، أو حتى بنسبة 5% من أغنى الأغنياء؛ لأدركنا حجم الربح الهائل، ولأدركنا هذه الظاهرة في جميع دول العالم المتعولم، كما تملك أمريكا جميع الأوراق الرابحة، وهي تتمثّل في أيديولوجيا ملائمة، وأكبر جهاز عسكري، وأقوى رسملة سنة 1990 في البورصة، وما عدا اليابان، تبدو رسملة البورصة في الدول الغربية صغيرة الحجم، ولا يُحسب لها أيّ حساب، بالمقارنة مع مثيلتها في الولايات المتحدة، إلاّ أن اليابان التي بقي نظامها الاقتصادي من نمط وطني يتمتّع بالحماية، لم تكن قادرة على منافسة أمريكا.

إن زيادة الرسملة في البورصة – غير المتناسبة إطلاقًا مع النمو الحقيقي للاقتصاد الأمريكي – لا تُمثّل في الحقيقة إلاّ نوعًا من تضخّم الأغنياء.

التبخّر

إن قسمًا مهمًا من أرباح العالم يذهب إلى البورصة الأمريكية، ولكن إذا قبلنا طبيعة الاقتصاد الأمريكي المادية وذات الإنتاجية الضعيفة – كما يدلّ على ذلك الاستيراد الكثيف للسلع الاستهلاكية – فعلينا أن نعُدّ رسملة البورصة كتلة وهمية، وأن الأموال التي تذهب إلى الولايات المتحدة هي في الحقيقة سراب.

وتتحوّل الأموال بطرق خفية إلى رموز نقدية في أيدي الأمريكيين، وتُستخدم للاستهلاك اليومي، وهكذا، يتبخّر الاستثمار في رأس المال، وإن كلّ حالة إفلاس أمريكية تُشكّل بالنسبة إلى المصارف الأوروبية أو اليابانية تبخّرًا لرأس المال، والأرجح أن يفقد المستثمرون واليابانيون أموالهم نتيجة حالة الذّعر في البورصة يتبعها انهيار الدولار، ونجد في النهاية جمهورًا من الأمريكيين قد امتلكوا جانبًا من أرباح العالم بأسره، وبخاصة أرباح الأوروبيين، ألا تكشف مثل هذه الآلية عن قوة إمبريالية للولايات المتحدة مُشابهة لإمبريالية روما؟

إن عبوديتنا الطوعية للولايات المتحدة لا يمكن أن تستمرّ إلاّ إذا عاملتنا الولايات المتحدة بعدالة، إن علينا أن تُقنعنا بالأقوال والأفعال بأننا "كلنا أمريكيون"، غير أننا أبعد ما نكون عن ذلك، بل إننا نُعامل بصورة متصاعدة كرعيّة من الدرجة الثانية، وهو التوجّه الأيديولوجي المركزي لأمريكا الحالية.

الفصل الخامس: تراجع العمومية

إن أحد المقومات الأساسية للإمبراطوريات هو "العمومية"، أيْ القدرة على التعامل بالمساواة مع الأفراد والشعوب، وإن نجاح روما وفشل أثينا – كما اتضح لنا – يُفسّرهما الانفتاح المُتصاعد لحقّ المواطنة الرومانية، والانغلاق المُتعاظم لحقّ المواطنة في أثينا، وكان لابدّ للفرد في أثينا أن يكون مولودًا لأبويْن مواطنيْن حتى يكتسب حقّ المواطنة، في حين أن الشعب الروماني كان يتوسّع دون توقّف ليشمل جميع السكان اللاتين، وسكان إيطاليا، وجميع سكان حوض المتوسط،

وثمة أمثلة أخرى لأنظمة انتهجت طريق العمومية، واستطاعت تخفيض قدراتها العسكرية عن طريق التعامل بالمساواة مع الأفراد والشعوب مثل (الصين، الإمبراطورية العربية، الإمبراطورية السوفييتية، فرنسا) في حين فشلت النازية لاعتمادها المبدأ العرقي والإنجليزية لعدم سماحها للشعوب المفتوحة بالاندماج فيها، ويمكن وصف الولايات المتحدة بأنها تجمّع ناتج عن اندماج المهاجرين، ولكن الولايات المتحدة توصف أيضًا بالتناقض، أيْ بتمييز مطلق، فالهندي أو الزنجي يُمثّل بالنسبة إلى الأمريكيين رجلاً مختلفًا ومن طبقة أدنى.

وبين سنة 1950 و1965 قُبِلَ الآسيويون والهنود المحلّيون على أنهم أمريكيون تمامًا بكامل حقوقهم، فنساؤهم – على وجه التحديد – لم يعُدن محرّمات على الذكور من الجماعة المسيطرة (البيض)، ثمّ طُرحت قضية السود مجددًا، وحاولت حركة النضال من أجل الحقوق المدنية دمجهم في المجتمع المركزي، وعلى مستوى اللاوعي للمعتقدات العميقة لم يتغيّر أيّ شيء، ولم يقلّ مستوى التمييز ضدّ النساء السوداوات بالنسبة إلى الزوج إلاّ نادرًا، كما لم يتوافق الدمج في النظام السياسي جنبًا إلى جنب مع التحرير الاقتصادي، ونشأت طبقة وسطى سوداء، وكان لها أحياؤها المعزولة، وانضمّت بذلك إلى طبقة السود الفقراء الذين كانوا يُشكّلون الأغلبية الكبيرة.

تراجع العمومية الأمريكية الداخلية "ما تكشّف عن إحصاءات السود والهيسبانك"

لقد ثبت استحالة إدماج السود في النسيج الأمريكي، وظهرت مجموعة منفصلة تُدعى "الهيسبانك"، وهم الأمريكيون اللاتين من أصل هندي، وأكثريتهم الساحقة مكسيكيون، وإن النظام الذهني الأمريكي ليس ثنائي العنصرية، بل هو ثلاثي العنصرية (هنود، سود، بيض)، وتكشف معدّلات الخصوبة لمختلف المجموعات عن انشطار ذهني مستمر؛ بما يُبيّن فشل الاندماج داخل مجتمع ينمو نحو تقديس الاختلاف، وإحلاله محلّ تمجيد المساواة في الحقوق وتعدّد الثقافات.

كما يتمّ دمج إسرائيل في النظام الذهني الأمريكي، وذلك في الخارج والداخل، أمّا العرب فمطرودون كما هو حال السود والمكسيكيين، وإن اختيار إسرائيل هو التعبير الأكثر وضوحًا لتراجع العمومية الأمريكية، كما هو تعبير عن صعود التمييز بقوة في الخارج، وذلك برفض العرب، أمّا في الداخل، فهو يتمثّل في صعوبة دمج المكسيكيين والسود.

تراجع العمومية الخارجية: اختيار إسرائيل

إنه لأمر غريب أن يرى المرء أهمية العلاقة مع إسرائيل إلى جانب علاقة مُعادية شاملة للولايات المتحدة مع العالم العربي، وبصورة أوسع مع العالم الإسلامي، وإن الظلم الذي يرتكبه الإسرائيليون يوميًا ضدّ الفلسطينيين، هو بحد ذاته نفي لمبدأ المساواة الذي هو أساس الديمقراطية في المفهوم الأمريكي؛ ومردّ هذا تعاطف الولايات المتحدة المبالغ فيه نحو إسرائيل، وإن ضعف القوات العسكرية البرية الأمريكية البطيئة التي تأنف الخسائر بالأرواح؛ يستدعي توفّر قوات حليفة أو

مرتزقة في العمليات على الأرض، والحكام الأمريكيون لا يستطيعون التخلّي عن الدعم الإقليمي الذي يُقدّمه إليهم الجيش الإسرائيلي، الذي يُعدّ أقوى جيش في الشرق الأوسط؛ ممّا يضطرهم إلى مساندة دولة إسرائيل، التي يمكن تشبيهها – بصغر حجمها وتكوينها وتسليحها المُفرط – بحاملة طائرات ثابتة، دون أيّ تقدير أو اعتبار للعالم الإسلامي، ولكن هل من الواقعية أن يستطيع جيش إسرائيلي السيطرة على آبار النفط في السعودية والكويت والإمارات، إلى جانب أنه لم يكن قادرًا على الصمود في جنوب لبنان والضفة الغربية؟!

ويبدو واضحًا تأثير الطائفة اليهودية الأمريكية ونفوذها المؤثّر في الانتخابات، وذلك في ظلّ غياب اللوبي العربي، ويُبدي اليمين الديني الأمريكي الذي يدعمه بوش تعاطفًا قويًا مع إسرائيل، وحقدًا ضدّ الإسلام والعالم العربي، ويبدو هذا الشعور في حدّه الأقصى لدى الناخبين الجمهوريين، ويجب تفسير التعلّق القوي لأمريكا بإسرائيل؛ وهو أن إسرائيل قد تتحوّل إلى السوء في اللحظة نفسها التي تتحوّل فيها أمريكا إلى السوء، كما أنها تؤيّد سياستها الوحشية تجاه الفلسطينيين.

إن أمريكا تنجرف نحو الاعتقاد الرّاسخ بعدم المساواة بين البشر؛ ممّا يتناقض مع إيمانها بوحدة الجنس البشري، وإن الأهمّ – من أجل التحليل الإستراتيجي العالمي – هو أن ندرك المنطق العميق للسلوك الأمريكي القائم على عدم استعداد الولايات المتحدة لاعتبار العرب مخلوقات إنسانية؛ ممّا يعني انحسار العمومية داخل المجتمع الأمريكي.

الإمبراطورية قد تكون تمييزية

إن الفصاحة الخطابية الأمريكية حول "إمبراطورية الشر" و"محور الشر"، أو أيّ ظاهرة شيطانية على الأرض تستدعي الضحك لغباوتها الواضحة؛ فالأمريكيون منشغلون دائمًا بالشرّ الذي يرونه في الخارج، ولكنه في الحقيقة يأتي من داخل الولايات المتحدة نفسها، وإن الله لا يُبارك أمريكا هذه الأيام، فهي تتحدّث بالشر في كلّ مكان إذ أصبحت بذاتها شريرة، خلافًا لما كانت عليه من سنة 1950 إلى 1965 كبلد ديمقراطي، يُناضل من أجل الحقوق المدنية، وحرية التعبير؛ فقد كانت إمبراطورية توسم بالخير.

إن قوة المنتصر تسمح باندماج الثقافات، وإن ذلك الزمن الذي كان يجمع في الولايات المتحدة القوة الاقتصادية والعسكرية، والتسامح الفكري والثقافي يبدو بعيدًا جدًا، ولم تعُد أمريكا متسامحة كما كانت من قبل، وهي تزعم أنها تُجسّد مثلاً إنسانيًا فريدًا، وليست الهيمنة والأنانية سوى علامات على التراجع المأساوي للقدرة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية الحقيقية، فالولايات المتحدة تفقد قدرة سيطرتها على العالم؛ ولذلك هي تُنفي وجود هذا العالم المستقلّ وتنوّع مجتمعاته.

الفصل السادس: مواجهة القوي أم مهاجمة الضعيف؟

بعد أن كانت أمريكا سنة 1945 دولة عظمى مستقلّة، أصبحت بعد نصف قرن ثقبًا أسود يبتاع البضائع والرساميل، ومن أجل تأمين سيطرتها على العالم الذي يُغذّيها؛ كان عليها أن تتحوّل إلى قوة هيمنة سياسية وعسكرية، وتفرض نفسها كزعيمة على العالم كله، وأن تكتسب احتكارًا عالميًا للعنف المشروع، ونلاحظ هنا التناقض الأساسي للوضع الأمريكي في العالم؛ إذ على الولايات المتحدة أن تؤمّن الاستقرار باستمرار للتوازن الاقتصادي الإمبريالي، دون أن تكون لديها الوسائل العسكرية والأيديولوجية الضرورية، لذلك فإن الخيار الإمبريالي الأمريكي حديث العهد، فهو لم يكن نتيجة لإرادة قوة، بل على العكس، طرح نفسه على القادة الأمريكيين كحلّ سهل، وقد كان نتاج الظروف؛ فانهيار الاتحاد السوفييتي، ولّد للحظة الوهم بالقوة العظمى.

من انهيار الشيوعية إلى انهيار روسيا

بعد انهيار الشيوعية – العدو الرئيس للولايات المتحدة – بدا أن ذلك يقود إلى ظهور قوى رأسمالية أوروبية أو آسيوية، فبين سنتيْ 1990 و1995، تأكّد التفكّك السياسي للحلف السائر في الفلك السوفييتي (حلف وارسو)، فانخفض الإنتاج الروسي بنسبة 50%، وتراجع النقد، وفقدت روسيا وضعها كمُكافئ وندّ للولايات المتحدة ديمغرافيًا (في سنة 1981، كان عدد سكان الاتحاد السوفييتي 268 مليون شخص، وسكان أمريكا 230 مليون شخص، بينما لم يزد عدد سكان روسيا سنة 2001 عن 144 مليون شخص)، وحين بدا الخصم الإستراتيجي للأمريكيين (روسيا) على وشك الاحتضار؛ ظهر الخيار الإمبريالي كحلّ وحيد للولايات المتحدة فتحوّلت إلى القوة العسكرية المتفرّدة، وبرزت كقوة عظمى وحيدة، إلاّ أن إستراتيجية الولايات المتحدة القائمة على تدفّق الرساميل، ثمّ العجز التجاري لاحقًا، تنطوي على مجازفة ضخمة تجد أمريكا نفسها ذات يوم في حالة تبعية اقتصادية خطيرة، دون امتلاك تفوّق عسكري حقيقي، أيْ باختصار، الانتقال من حالة نصف إمبريالية إلى حالة إمبريالية كاذبة.

ساحة دبلوماسية واسعة

يقوم مشروع "بريجنسكي" على أن التهديد الوحيد للإمبراطورية الأمريكية المراد بناؤها يأتي من روسيا؛ لذا يجب عزلها وتجزئتها، وما دام كلّ من أوروبا واليابان راضية عن الزعامة الأمريكية، فإن الإمبراطورية الأمريكية تستعصي على القهر، كما يقترح المشروع موقفًا تصالحيًا مع الصين، وكذلك مع إيران؛ لمحاصرة روسيا بين أوروبا واليابان، وقطع صلاتها بالصين وإيران، وباختصار، على أمريكا، الدولة العظمى الوحيدة، أن تُبدي تفهمًا سياسيًا إزاء جميع الدول الثانوية من أجل القضاء نهائيًا على التهديد العسكري المباشر الوحيد لهيمنتها، والمتأتّي من روسيا.

إلاّ أنه قد ثبت لاحقًا أن جهد أمريكا ضعيف بهذا الصّدد، وهو غير كافٍ لزعزعة استقرار روسيا بشكل حاسم، فلم تعُد أمريكا تمتلك الوسائل الضرورية له؛ إذ أهملت أمريكا حلفاءها الأوروبيين بانتهاجها العمل العسكري أُحادي الجانب، وتركت "الحلف الأطلسي" (الأداة الأساسية لقوتها) يتخبّط دون هدف مُحدّد، كما استفزّت الصين، وأدرجت إيران في "محور الشر".

كما أن إصرار أمريكا على تعميم نزاعها مع العالم الإسلامي، بتأييدها الثابت لإسرائيل دليل على الرّعونة التي تُنتج الخيار الإمبريالي، فالولايات المتحدة الحقيقية هي من الضعف بحيث لا تقوى إلاّ على مجابهة القوى العسكرية الصغيرة الهزيلة، بحالة من فقدان الوعي، والهستيريا المسرحية.

اللعبة العسكرية الصغيرة

ثمة مسرح جديد افتُتح حديثًا أمام نشاط الولايات المتحدة الشغوفة بإشعال الحرائق، يتمثّل في الصراع بين الهند وباكستان، وهذه الصراعات – التي لا تُشكّل أيّ تهديد على الولايات المتحدة – تسمح لها بأن تكون حاضرة في كلّ مكان في العالم، وهي تُغذّي الوهم بأن العالم غير مستقر، وخطير، وبالتالي، هو في حاجة إليها من أجل حمايته.

لقد طرحت الحربان اللتان خاضتهما الولايات المتحدة، أولاً بقيادة بوش الأب، والثانية بقيادة ابنه، السؤال عن الخطر الإستراتيجي الذي يمكن أن يُشكّله العراق على الولايات المتحدة، فأيّ تهديد إستراتيجي يمكن أن يُشكّله بلد نفطي صغير، يقوده ديكتاتور تقتصر قدرته على قمع خصومه المحليين فقط؟!

إن تضخيم التهديد العراقي بالإشارة إلى أن لدى العراق رابع أقوى جيش في العالم، لم يكن سوى بداية من أجل إعداد مسرح لإقامة حروب مع خصوم ضعفاء، ضدّ تهديدات للعالم، وأخطار موهومة مفترضة، وغير موجودة، ومثال ذلك حرب أفغانستان.

التركيز على الإسلام واحتقار العالم العربي

إن القسم الأعظم من النشاط العسكري الأمريكي سوف يتركّز – منذ الآن فصاعدًا – على العالم الإسلامي تحت راية "الحرب ضدّ الإرهاب"، وتركيز التفكير الإستراتيجي الأمريكي على النفط العربي، إذ رأت أمريكا – بصورة مفاجئة – أن العالم الإسلامي خصم لها، وصار التسامح يتراجع دون توقّف حتى باتت أمريكا مُبرمجة للدخول في صراع مع العالم العربي الإسلامي، كمناطق حرب أمريكية مُقبلة على باكستان، وإيران، وتركيا جزئيًا، أو الادّعاء بضرورة الإصلاح والتغيير في دول العالم الإسلامي، ويبدو أن العالم الإسلامي ليس بحاجة إلى نصائح أمريكا من أجل أن يتطوّر على صعيد الأخلاق.

مواجهة القوى أم مهاجمة الضعيف؟

إن الصـراع بين العالم الأنجلو سـاكسـوني والعالم العربي عميق، وثمة ما هو أسـوأ من المواقف النسـوية التي اتخذتها السـيدة بوش والسـيد بلير حول وضـع المرأة في أفغانسـتان، وبدت القاذفة الأمريكية "B-52" وكأنها تقصـف "اللانسـوية الإسـلامية"، وإن الحرب العمياء التي تُشـنّ ضـدّ التقاليد لا يمكن إلاّ أن تُعيق التطوّر وتُجمّده؛ لأنها تجمع في الذّهن الحضـــارة الغربية شـــديدة النســـوية، وتُعطي في المقابل مباركة غبية للتقليد الذكوري المُفرط والمُفضّـــل لدى المحارب الأفغاني، وقد كانت الحرب ضـدّ الإرهاب فرصـة لإطلاق الأحكام النهائية على النظام الأفغاني والعربي والإسلامي.

تبعية اقتصادية وانشغال دائم بالنفط

في 1973، كانت الولايات المتحدة تُنتج يوميًا 9,2 مليون برميل، وتســـتورد 3,2 مليون برميل، وفي 1999، صـارت تُنتج 5,9 مليون برميل، وتسـتورد 8,6 مليون برميل، وعلى الوتيرة الحالية للاستخراج، فإن الاحتياطي الأمريكي من النفط سوف ينضب سنة 2010؛ وعلى هذا يمكن فهم الانشغال الأمريكي الدائم بالبترول.

إن العالم العربي على الرغم من وضـعه المتفوّق في الإنتاج، لا يُمسـك بخناق الولايات المتحدة؛ إذ إن نصـف مسـتوردات أمريكا من البترول تأتي من العالم الجديد (المكسـيك، كندا، فنزويلا) بنسبة 70%، وتؤمّن دول الخليج الفارسي على وجه الخصوص بنسبة 18% فقط من استهلاكها، وبالتالي، فإن الوجود العسكري في المنطقة، سواء كان جويًا أم بريًا في السعودية، والعقوبات ضدّ إيران، والحرب في العراق بحجّة امتلاك أسـلحة الدمار الشـامل، وإسـقاط النظام؛ تندرج كلها في إطار إسـتراتيجية نفطية، فالطاقة التي تسـعى الولايات المتحدة للسـيطرة عليها ليسـت فقط لسـدّ حاجـة الولايـات المتحـدة، بـل لتتوزّع على جميع دول العـالم، ومن هنـا يبـدو الجهـد الإمبريـالي الأمريكي الذي لا يبعث على الاطمئنان؛ إذ إنها بسيطرتها على الطاقة الضرورية لليابان وأوروبا تضمن الاحتفاظ بإمكانية الضغط عليها.

إن التركيز على البترول في العالم الإسلامي يكشف قلق الولايات المتحدة أكثر ممّا يكشف قوتها، ويتجلّى ذلك أولاً في الخوف من التبعية الاقتصادية التي أصبحت عامة، والتي يُشكّل العجز في الطاقة رمزًا لها، وثانيًا في الخوف من فقدان السيطرة على المحميتيْن المنتجتيْن: أوروبا واليابان.

حلّ الأجل القصير: مهاجمة الضعفاء

يعود اختيار العالم الإسـلامي كهدف وذريعة لـــــ"العسكرية الأمريكية" – التي تهدف بالفعل إلى إثبات سـلطانها المُطلق بتكلفة زهيدة – إلى ضـعف العالم العربي، ويُلاحظ هنتنغتون أنه لا يوجد في المنطقة العربية الإسـلامية أيّ دولة قوية بسـكانها، أو بصـناعتها، أو بقوتها العسـكرية، لا مصـر، ولا السـعودية، ولا باكسـتان، ولا العراق، ولا إيران، وقد قدّمت إسـرائيل مرات عدّة البرهان

على عدم الكفاءة العسكرية للدول العربية؛ فبالتالي، تُعدّ المنطقة بمثابة حقل تجارب مثالي للولايات المتحدة، تستطيع فيه أن تُحقّق انتصارات سهلة تُذكّر بألعاب الفيديو، والحرب الممكنة بالنسبة إلى الولايات المتحدة هي تلك الحروب التي تُشنّ ضدّ عدو ضعيف، وتُساء معاملة العرب لأنهم يعانون ضعفًا عسكريًا، ولأنهم يمتلكون البترول، إلى جانب انعدام دور فاعل لدولة عربية في اللعبة السياسية الأمريكية.

إن الإيماءات الأمريكية في الخليج، والحرب ضدّ العراق، والتهديدات الموجّهة إلى كوريا الشمالية، والاستفزازات ضدّ الصين تُقدّم وسيلة تسلية للإعلام وتُبهر قادة الحلفاء، وإن عودة روسيا إلى التوازن الإستراتيجي العسكري مع الولايات المتحدة، وتوجّه أوروبا واليابان نحو خطّ استقلالي؛ يؤدّيان إلى انهيار الزعامة الأمريكية في الأمد المتوسط.

الفصل السابع: عودة روسيا

إن محاولة الولايات المتحدة لإنهاء روسيا أو عزلها في سبيلها نحو الفشل، وهي تستمرّ في ذلك وكأن خصمها الإستراتيجي القديم لم يعُد يُحسب حسابه، وذلك إمّا بإهانته، أو بالتظاهر نحوه بالعطف وكأنه مُشرف على الموت، وإمّا بفعل الاثنيْن معًا، والقول إن روسيا لم تعُد موجودة معناه إنكار الحقيقة، وتقوم الإستراتيجية الأمريكية على تفكيك روسيا عن طريق تحريض النزعات الاستقلالية في القوقاز، والحضور العسكري في آسيا الوسطى، كما تسعى إلى تحقيق قدر من التوتّر في علاقات الولايات المتحدة مع روسيا من أجل منع التقارب بين أوروبا وروسيا، لكن النتيجة كانت عكسية؛ إذ عادت روسيا إلى الانغماس في اللعبة الدولية، وتقرّبت من أوروبا التي تحتلّ مركز القوة الصناعية في العالم، وأدركت أن حجم تدفّق المستوردات والصادرات هو الذي يُحدّد الرّهان الحقيقي للعبة الثلاثية البارعة الناشبة بين روسيا والولايات المتحدة وأوروبا.

كانت قيمة التبادل التجاري بين روسيا والولايات المتحدة سنة 2001 هي 10 مليار يورو، وبين روسيا وأوروبا 75 مليار يورو، أيْ سبعة أضعاف ونصف الضعف؛ ممّا يعني أنه في وسع روسيا الاستغناء عن الولايات المتحدة، ولكنها لا تستطيع ذلك مع أوروبا، وقد عرضت روسيا تزويد أوروبا بالطاقة، وقد كانت صفقة مغرية، إذ عادت روسيا لاعبًا ثابتًا موثوقًا به في توازن القوى بين الدول.

المؤشّرات الديمغرافية للأزمة الروسية

إن المجتمع الروسي بكامله مجتمع متعلّم، وبخاصة التعليم الثانوي والعالي، ولكن روسيا دولة فقيرة، وترتفع فيها نسبة حالات العنف إلى أقصاها، ففيها أعلى معدّل جريمة (23 لكلّ مئة ألف)، إلى جانب معدّل انتحار عالٍ (35 لكلّ مئة ألف)، وقد عزّز الأزمة انهيار معدّل

الخصـوبة، وارتفاع معدّل الوفيات، ويُتوقع أن يهبط عدد سكان روسـيا من 144 مليون شـخص سنة 2001 إلى 137 مليون شخص سنة 2025، كما ينخفض معدّل متوسط الأعمار تدريجيًا.

الازدهار الاقتصادي وعودة الدولة

بدأ الاقتصاد الروسي في استعادة نشاطه منذ سنة 1999؛ إذ تصاعد الدخل القومي بعد تراجع، وأعادت روسيا تأسيس قوتها العسكرية، وتوصلت إلى حلّ جميع مشكلاتها، أو على الأقلّ الأهمّ منها، وبات من الواضـح أن عهد بوتين هو عهد استقرار للحياة الاجتماعية الروسية، وبداية حلّ للمشكلات الاقتصادية.

ويمكن القول إن انهيار الدولة كان المسؤول عن الفوضـى الاجتماعية والاقتصـادية التي سـادت زمن الانتقال من الشيوعية إلى الليبرالية، وقد تفادت الصين هذه الفوضى باحتفاظها بسلطة فوقية للدولة في قلب عملية تحرير الاقتصاد.

الديمقراطية في روسيا

لا يستطيع أحد أن يؤكّد أن مصـير النظام السـياسـي سـوف يكون ليبراليًا ديمقراطيًا، ففي روسـيا رئيس قوي، منتخب بالاقتراع العام، وبرلمان أقلّ قوة، ولكنه منتخب أيضًـــا، كما هناك تعددية في الأحزاب السـياسـية، ويمكن تحديد ثلاث قوى رئيسـة، وهي: الحزب الشـيوعي، والحكومة كمركز، واليمين الليبرالي.

وبعد تفكّك الاتحاد الســوفييتي، وما أعقبه من فوضـــى، علينا أن نتأمّل ما حقّقته روســيا خلال عشـر سـنوات في خضـمّ آلام اقتصـادية واجتماعية ضـخمة، فقد قبلت دون عنف استقلال الدول التابعة لها في أوروبا الشـرقية، والبلطيق، والقوقاز، وآسـيا الوسـطى، ولابدّ من الإعجاب بالذكاء ورباطة الجأش لدى القادة الروس الذين فضّلوا مستقبلاً بعيدًا عن العنف، وقد برهنت روسيا على أنها أمة عظيمة، وعقلانية، ومسـؤولة، ولابدّ أن نعترف بإسـهامها في التاريخ، ومن مظاهر ذلك الأدب الروسي الذي أصبح أحد أهمّ الآداب العالمية.

العمومية الروسية

إن الشـيوعية اختراع روســي، أغوت به روســيا من هم خارج الإمبراطورية الروســية من عمّال، وفلاحين، وأسـاتذة، واسـتطاعت أن تُشـكّل من الشـيوعية قوة عالمية، كما اسـتطاعت روسـيا أن تجتذب الناس إلى نظامها الشيوعي بفضل اعتبارها كلّ أفراد البشر متساوين.

وإذا نجحت الديمقراطية الروســية الحديثة، فســوف تحتفظ ببعض الخصــوصــيات، فالاقتصـــاد الروســـي المتحوّل إلى الليبرالي لن يكون إطلاقًا من النوع الرأســمالي الفردي، ولن يعمل النظام السياسـي الروسـي وفقًا لنموذج تداول السلطة بين حزبيْن على الطريقة الأمريكية، أو الإنجليزية، ويُفسّر غياب قوة الاتحاد السوفييتي القائم على مبدأ المساواة والعلاقات الدولية انفلات التوجّهات

التمييزية الأمريكية والإسرائيلية، وبإمكان روسيا من غير فوضى أو تسلّط أن تُصبح عامل توازن أساسيًا، بأن تكون أمة قوية دون هيمنة، وتُعبّر عن مفهوم المساواة بين الشعوب.

الاستقلالية الإستراتيجية

جعلت الطبيعة من روسيا أمة مستقلّة عن العالم، على الرغم من أن ميزانها التجاري غير فائض، وقد برزت روسيا كديمقراطية شاسعة ذات حسابات خارجية متوازنة، وتتمتّع بالاستقلال في مجال الطاقة، وذلك في عالم تسوده الولايات المتحدة، ودون تبعية لأيّ كان؛ إذ تمتلك ورقة رابحة نادرة، وهي تصـــدير البترول، وعلى الأخصّ الغاز، ممّا يجعلها أمة مطمئنة جدًا، لأنها لا تعتمد على العالم الخارجي لتزويدها بالطاقة مقابل الولايات المتحدة المثيرة للقلق التي تُوصف بأنها "نهّابة".

إعادة موقع المركز إلى روسيا

إن عودة المنطقة السوفييتية إلى الظهور ليست مؤكّدة أكثر من عودة الانطلاق النهائي لروسيا، ولكن يمكن أن نرى الآن أن عودة الانطلاق هذه ستُعيد روسيا إلى مركزيتها؛ إذ توجد بين جميع الأمم التي ولدّها انهيار الاتحاد الســوفييتي صـــلات تقارب أنثروبولوجي تعود إلى عهد ســابق للشيوعية.

إن روسيا في سبيلها إلى وضع تصوّر لخروجها من الشيوعية، ووضع إطار لنظام اقتصادي وســياســـي حرّ، ولكنه يأخذ في الاعتبار وعيًا جمعيًا قويًا، ويمكن – بهذا المعنى الدّقيق – أن تُصبح مجددًا النموذج الجدير بالاقتدار، فروسيا بشمالها ووسطها مكان ولادة الدولة الروسية، وجمهوريات البلطيق، تنتمي كلها إلى منطقة ثقافية أصـــلية واحدة تبرز فيها قوة الرّوح الجمعية، وأعتقد أن الجنود الأمريكيين المتمركزين في أوزبكستان، والـذين يبلغ عددهم 1500 جندي، ليسوا على جانب كبير من الأهمية، وهم بعيدون عن عالمهم، وإذا كانوا يُشكّلون الآن رأس حربة، فإنهم قد يُصبحون رهائن في الغد.

المسألة الأوكرانية

لا تُعدّ أوكرانيا تاريخيًا واجتماعيًا سوى منطقة ذات بنية غير واضـحة المعالم، وهي جوهريًا من أطراف روسيا، وتخضع لتحريض المركز، وهي أكثر تعلقًا بالستالينية من روسيا، وذات طابع محافظ، ومن المؤكّد أن أوكرانيا لن تنتقل من مكانها، وتقاربها مع روســـيا محتمل، ومن غير الممكن أن تعود موسكو لتبسط سلطانها عليها، وستبقى أوكرانيا مستقلة استقلالاً حقيقيًا، ولكنها سوف تصبح "روسيا ثانية" صغيرة أو جديدة.

الضغط كورقة رابحة

لا يتوقف الإستراتيجيون الأمريكيون عن إفهام الروس أن إمبراطوريتهم قد ولّى زمانها، والحقيقة أن روسيا لم تعُد قوة توسّع، ومهما يكن شكل النظام السياسي الذي تتخذه، سواء كان ديمقراطيًا أم سلطويًا، فإنها في حالة تراجع ديمغرافي (سكاني)؛ إذ يتناقص عدد سكانها، وتقلّ نسبة الشباب في تركيبته، ويُعدّ هذا عامل استقرار للأمة وليس عامل تهديد.

لقد أدّى تفكّك الاتحاد السوفييتي إلى بروز الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة؛ ودفعها ذلك إلى الحلم بإمبراطورية مستحيلة، وعندئذ برز بقوة الإغراء للقضاء على "الدبّ" الروسي، وتبيّن للعالم – شيئًا فشيئًا – أن "روسيا المصغّرة" أصبحت تلقائيًا شريك توازن في مقابل أمريكا القوية و"النهّابة"، والتائهة جدًا في مواقفها الدولية، مع التشديد هنا على الإمكانية الدفاعية لروسيا كعامل حاسم لوصول أوروبا إلى درجة القوة العالمية المستقلّة، كما يُشكّل الاستقرار الداخلي في روسيا ورقة رابحة في يد الرئيس بوتين، ممّا يسمح لهذا الأخير بأن يندمج مجددًا كحليف محتمل في اللعبة السياسية الأوروبية، كما أن روسيا قادرة على فهم العلاقات الدولية على أساس المساواة والعدل؛ ممّا يعني قدرتها الإيجابية على تحقيق توازن في العالم.

الفصل الثامن: تحرر أوروبا

كان اعتداء 11 سبتمبر بالنسبة إلى الأوروبيين في المرحلة الأولى مناسبًا لإظهار تضامنهم مع الأمريكيين، وقد أصرّ الزعماء الأوروبيون على إشراك "الحلف الأطلسي" في حرب غير مُحدّدة المعالم ضدّ الإرهاب، والتي اتسمت بالوحشية، وقد كانت غامضة الأهداف ولم تكن مثمرة، كما أن التشهير المستمرّ بـ"محور الشر"، والدعم الثابت لإسرائيل، وكراهية الفلسطينيين، غيّرت على نحو تدريجي صورة الولايات المتحدة لدى الأوروبيين، وأضحوا يتوجّسون منها، ويرونها مثيرة للفوضى، وتنمّ تصرفاتها عن خطورة بالغة، وتوتّر مستمر؛ فنشأ وعي دولي مشترك من جانب الفرنسيين، والألمان، والإنجليز، وإن هذا النوع من التوتّر يُعجّل بقرب الطلاق الذي قد يقع بين أوروبا والولايات المتحدة.

خياران: اندماج إمبريالي أم استقلال؟

أحسّ المسؤولون الأوروبيون بحاجتهم إلى حماية أمريكية غداة تحوّل أوروبا الشرقية إلى النظام السوفييتي، وبعد متاعب الحرب العالمية، وانهيار الشيوعية؛ عاد الحنين إلى الاستقلال، غير أن قوى مناقضة تدفع نحو الاندماج الكامل في النظام الأمريكي قد ظهرت خلال السنوات العشرين الأخيرة، وقد قام القادة الأوروبيون بتحرير الاقتصاد، وتوحيد القارة، واضعين الأمريكيين في موقف طريف، فالولايات المتحدة لا تعرف إذا كان تابعوها الأوروبيون خونة، أم رعية وفية.

ويستوجب خيار "الاندماج الإمبريالي" من القادة الأوروبيين دفن الأمة الأوروبية، وزواجًا إمبرياليًا، ولقد أدّى بروز كراهية حقيقية لأوروبا من قبل اليمين السياسي الأمريكي إلى تساؤل الأوروبيين، وذلك على النحو الآتي: "هل تودّ أمريكا أن تُصنّف الأوروبيين كمواطنين من الدرجة الثانية؟" وهكذا، يتّضح أن دعوة التمييز الأمريكي لا تقتصر على السود والعرب فقط، بل تطال أيضًا – ولو بدرجة أقلّ – الأوروبيين واليابانيين، وكما كان يُقال في الماضي، إن قوة الأشياء سوف تفصل أوروبا عن أمريكا.

صراع الحضارات بين أوروبا وأمريكا

ليست قوى الفصل بين أوروبا وأمريكا كلها اقتصادية، وتنشر في أوروبا قيم السلام والتوازن، وهي قيم غريبة هذه الأيام عن المجتمع الأمريكي، كما أن العامل الديني يبدو مغايرًا لدى الطرفيْن، فأمريكا تتشدّق بالكلام حول الدين، ويُقال أن نصف سكانها يذهبون إلى الكنيسة كلّ يوم أحد، بينما في الحقيقة يذهب الربع منهم فقط، في حين تجنح نسبة الأوروبيين الذين يذهبون إلى الكنيسة نحو الصفر، غير أن الاتحاد الأوروبي يُطبّق أحسن من غيره قيم الإنجيل الذي يقول: "لن تقتل بعد الآن" فألغيت عقوبة الإعدام، وانخفض معدّل الجريمة، على العكس تمامًا ممّا يجري في الولايات المتحدة، وعالم الاختلاف بين أوروبا وأمريكا ليس له حدود.

النموذج الاجتماعي الأمريكي يُهدّد أوروبا

إن المجتمعات الأوروبية واليابانية متجذّرة في الأرض بقوة، بينما الحركة التنقّلية للسكان الأمريكيين لا تتوقّف؛ إذ يُنتج اليابانيون ضعف ما ينتجه الأمريكيون، ويتحركون أقلّ منهم بمرتيْن، كما أن تصدير الولايات المتحدة لنموذجها الخاص القائم على الرأسمالية دون ضوابط، يُشكّل تهديدًا للمجتمعات الأوروبية واليابانية.

ولقد قام استقرار النظام الأمريكي في البداية على هاتيْن الركيزتيْن (ألمانيا واليابان)، اللتيْن هُزمتا في الحرب العالمية الثانية، ثمّ دُجّنتا، وتسير أمريكا بخطى وئيدة، مدفوعة بعجزها التجاري، وعدم تسامحها إزاء العالم، نحو فقدان هذيْن الحليفيْن.

إن الأوروبيين يعون تمامًا المشكلات التي تُسبّبها لهم أمريكا، التي توفّر لهم بثقلها الحماية، وتضغط عليهم في آن معًا، منذ سنوات طويلة، وتشعر أمريكا أنها مُهدّدة بالمقابل حتى قبل إصدار الـ"يورو" من خلال التطوّر الاقتصادي القوي لأوروبا.

القوة الاقتصادية الأوروبية

تُدرك أمريكا بأن القوة الاقتصادية للدول الأوروبية تُقوّض السلطة السياسية والعسكرية للولايات المتحدة، ويُشير المنطق الحسابي الصارم إلى أن العولمة ستؤدّي إلى نقل مركز الثقل الاقتصادي إلى أوروبا، وتميل إلى عزل أمريكا، والدليل على ذلك بروز أوروبا مندمجة، وقوة

مسيطرة في منطقة ذات موقع إستراتيجي أهمّ من المنطقة التي تحتلّ فيها الولايات المتحدة موقع المركز، ممّا يُشكّل تهديدًا بالغ الخطورة على مركز الولايات المتحدة في العالم.

وإن اصطفاف تركيا إلى جانب أوروبا يؤدّي إلى هبوط مأساوي لقدرة الولايات المتحدة العسكرية في الشرق الأوسط، وصحيح أن الأوروبيين الحاليين لا يُفكّرون بمثل هذا السيناريو، ولكن الأمريكيين يتصوّرونه ويخشونه.

السلام مع روسيا والعالم الإسلامي

ليس لأوروبا – على عكس الولايات المتحدة – مشكلات خاصة مع العالم، فمصلحتها على المدى الطويل تقوم على السلام، في حين أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة ترتكز على خصميْن متجاوريْن لأوروبا، الأول: روسيا التي تُشكّل العائق الأساسي في وجه الهيمنة الأمريكية، ولكنها أقوى من أن تُقهر، والثاني: العالم الإسلامي وهو "خصم مسرحي" يُستخدم لاستعراض القوة العسكرية الأمريكية.

بالنسبة إلى الإسلام، نجد أن الأذى الأمريكي يزداد خطرًا على المسرح الأوروبي، ففرنسا التي عانت من اضطرابات المغاربة سنة 2002، والمواجهة بين الأتراك المهاجرين والألمان والباكستانيين في بريطانيا؛ سببها سياسة الولايات المتحدة المؤيّدة لإسرائيل.

الثنائي الفرنسي–الألماني وخليلته الإنجليزية

من المحتمل – إستراتيجيًا – تكوين زعامة ثلاثية للقارة الأوروبية من (بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا)، ولم تكن العلاقات الفرنسية–الألمانية جيدة طوال السنوات 1990–2001؛ فقد تسبّب توحيد ألمانيا بفقدان توازن أوروبا، إذ أصبح عدد سكان ألمانيا 80 مليون شخص إلى جانب 60 مليون شخص يُمثّلون عدد سكان فرنسا، إلاّ أن عدد الولادات في ألمانيا أقلّ بكثير ممّا هو في فرنسا، ويُدرك الألمان أن دولتهم لن تكون الدولة العظمى وسط أوروبا، كما استعادت فرنسا ثقتها بذاتها، ممّا هيأ كلّ الشروط من أجل عودة انطلاق التعاون الفرنسي–الألماني.

ويرى الإنجليز بصورة أفضل من الأوروبيين الآخرين جميعًا ليس فقط عيوب أمريكا، بل أيضًا تطوّرها، وهم الحلفاء المفضّلون للولايات المتحدة، وقد يؤدّي دخول بريطانيا في النظام الأوروبي المركزي – في الحالة الراهنة من العجز الإنتاجي للاقتصاد الأمريكي – إلى قلب موازين العالم، عندئذ ستقضي بريطانيا – التي تجاهلها بريجينسكي – بضربة واحدة على الهيمنة الأمريكية باختيارها أوروبا.

الخاتمة: نهاية اللعبة

يوجد اليوم قوة واحدة تُهدّد التوازن الشامل في العالم، وهي الولايات المتحدة التي تحوّلت من "حامية" إلى "نهّابة"، ولم تعُد ذات نفع عسكري أو سياسي، كما أنها لم تعُد تستطيع الاستغناء عن السّلع التي يُنتجها العالم، وكلّ تحرك تقوم به يولّد ردود أفعال سلبية تضعف من وضعها الإستراتيجي.

لقد ولّد الانهيار المفاجئ للشيوعية الوهم ببروز الولايات المتحدة كقوة مُطلقة اعتقدت أن بوسعها بسط هيمنتها على كلّ العالم، في حين أن سيطرتها بدأت تتراجع، ومن أجل الوصول إلى الهيمنة الثابتة على العالم لابدّ من توفر شرطيْن رئيسيْن:

1- الاحتفاظ بسيطرة كاملة على المحميتيْن الأوروبية واليابانية.

2- القضاء نهائيًا على القوة الإستراتيجية الروسية.

ولم يتحقّق أيّ من الشرطيْن؛ فاضطرّت أمريكا إلى أن تختار ممارسة الضغوط العسكرية والدبلوماسية في عالم الضعفاء "محور الشر" والعالم العربي؛ إذ تفرض الخطر على دولة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وتقصف جيوشًا لا وزن لها، وتولّد في المناطق والدول التي ترزح تحت السيطرة أعمالاً إرهابية، كان أكثرها نجاحًا اعتداء 2001/9/11، وقد آلت سياستها إلى التقارب بين قوة نووية كبرى (روسيا) وقوتيْن صناعيتيْن اقتصاديتيْن مسيطرتيْن (أوروبا واليابان) ضدّ محاولة أمريكا السيطرة على مصادر تموينهم بالطاقة، وإن أوروبا وروسيا واليابان تُمثّل – مجتمعة – مرتيْن ونصف مرة القوة الأمريكية، وتبدو اليابان صغيرة جدًا على الخريطة، إلاّ أن إنتاجها الصناعي يُعادل إنتاج الولايات المتحدة، وتستطيع – لو شاءت – أن تبني خلال 15 سنة قوة عسكرية بتكنولوجيا متكافئة، أو أرقى ممّا تمتلكه أمريكا.

يجب الفهم قبل العمل

يجب أن نتعلّم النظر إلى العالم كما هو، وننأى بأنفسنا عن التحكّم الأيديولوجي، والإعلام الزائف، فأمريكا ليست تلك القوة العظمى، ولا يمكنها أن تُرهب سوى الدول الضعيفة، وسوف تكون تحت رحمة تحالف يضمّ الأوروبيين واليابان وروسيا، الذين يملكون – مجتمعين – القوة الكافية لخنقها، وسيُشكّل اليورو في المستقبل تهديدًا دائمًا للنظام الأمريكي باعتباره تجمعًا اقتصاديًا يُضاهي بقوته قوة أمريكا، وإن ما يحتاج إليه العالم ليس اختفاء أمريكا، بل أن تعود إلى ذاتها ديمقراطية، وليبرالية، ومنتجة.

إن القوة الحقيقية هي ديمغرافية وتعليمية، كما أن السلطة الحقيقة هي اقتصادية، ولن يُفيد شيئًا أن ننساق وراء سراب تنافس عسكري زائف مع الولايات المتحدة، وعلينا ألاّ نقتدي بالجيش الأمريكي، فنستبدل مفهوم عمليات المسرح بمفهوم مسرح العمليات، كما أن التدخّل من جانب الأمريكيين لن يكون سوى لعب دور في "مسرحية هزلية دامية".

لن يستطيع أيّ بلد في القرن العشرين أن يزيد قوته عن طريق الحرب، أو زيادة قواته المسلّحة، فقد خسر في هذه اللعبة خسارة كبرى كلّ من فرنسا وألمانيا واليابان وروسيا، وخرجت الولايات المتحدة منتصرة من القرن العشرين لأنها عرفت إلى أمد طويل كيف تنخرط في النزاعات العسكرية في العالم القديم، فلننهج نهج أمريكا الأولى، التي كان نصيبها النجاح، ولنُركّز طاقاتنا على إيجاد الحلول للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية.

لنترك أمريكا الحالية كي تستنفذ ما بقي لها من طاقة في "محاربة الإرهاب"، تلك الحرب التي تسعى من ورائها إلى الاحتفاظ بهيمنتها التي لم تعُد موجودة، وإذا أصرّت على أن تُثبت قوتها الهائلة فإنها لن تُفلح أكثر من أن تكشف عجزها للعالم.